مستويات المكان في روايات غسان كنفاني

أ.مالكي عائشة/المدرسة العليا للأساتذة، بشار

Abstract:
The nature of the place can be change from a faction work to another, may be the place in its nature is a hostile place to figure in the novel and certified it in another novel as stated in the one ofGhassanKanafani so the Sahara fabricated and function in the novel "Men in the Sun," "what's is left for you" as we see hostile to the characters of GhassanKanafaniand certified to them again, according to the mood of the character, as well as the house is the symbol of stability and the most important station for the convergence of memories and dreams is have an iccons witch can be widening and narrowing according to the impact and presence and interaction between him and the habitant. Ghassan Kanafani'snovels portrayed the dialectic between place and character.

المكان بين الألفة و العدائيّة:

اختلفت تصنيفات المكان وفقا لما جاءت به النّظريّات المعاصرة التي منحته اهتماما كبيرا أحدثقلة نوعيّة في تعامل النّقاد و الباحثين مع هذا العنصر الذي ظّل أسير النّظرة التّقليديّة القاصرة على مدى الفترة الممتدّة من (بلزاك- فلوبير) (إلاّ أنّ الاتّجاه النّقديّ الحديث أدخل الاهتمام بالمكان في ضمن أبرز التّحولات التي حدثت في الرّواية الجديدة، فظهرت تصنيفات عدّة للمكان منها المكانالمغلق و المفتوحالواقعي و الخيالي، العتبة و الواصلو كلّ هذه الثّنائيّات الجدليّة تتحدّد على وفق ما يتركه المكان من انطباع في نفس الشّخصيّة.[1])

علاقة المكان بالشّخصيّة: إنّ علاقة الشّخصيّة بالمكان الذي تعيش فيه ليست خاضعة لمعيار واحد فقط و ليست ثابتة على مستوى واحد، بل (إنّها خاضعة لميزان التّغيير الذي قد يتصاعد فيصل إلى مستوى الانتماء و قد ينخفض فيصل إلى مستوى التّنافر، و الذي يتحكّم بهذا الميزان هو الظّروف النّفسيّة و الاجتماعيّة و الاقتصاديّة، إذ تتحوّل نظرة الإنسان للمكان الواحد من الوّد إلى الضّد في ظروف معيشة).[2] فلا مناص من القول: إنّ الشّخصيّة و المكان دائما في حركة تبادليّة يؤثّر كّل منها بالآخر و لا يمكن أن يتوقّف التّأثير ببعضهم بعضاو اللاّفت للنّظر أنّ هذا التّأثير يجعل المكان يعكس الحقيقة النّفسيةّللشّخصيّة

وه هذه التّأثيرات التي تتجاوز الظّاهر لتصل إلى أعماق النّفس ليست مقتصرة على شخصيّة واحدة فقط، بل تشمل جماعات في بيئات مختلفة.وهكذاأنّ لكّل (مكان خصوصيّته في التّأثير على الشّخصيّات الرّوائيّة و نوعيّة التّأثير لابُدّ أنّ تختلف من مكانلآخحسب طبيعة المكان الذي تعيش فيه الشّخصيّات، فالشّخصيّة الرّوائيّة شديدة التّأثر بكّل ما يدور حولها و لكّل ما تراه، فالبيت الذي تسكنه الشّخصيّات مثلا يشهد حركة

و علاقات اجتماعيّة و حتّى شكله و ما يحويه من منافذ ومداخل قد يدلّ على الشّخصيّة التي تقطنه فالرّوائّي عندما يصف البيت فكأنّه في الوقت نفسه يصف الشّخصيّة، فبيت الإنسان امتداد لنفسه، فإذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان.)[3]

إنّ ثمّة علاقة تأثير وتأثّر بين المكان والشّخصيّات الرّوائيّة رئيسيّة كانت أوثانويّة إذ يُعدّ المكان عنصراأساسيّافي تشكيل بنية هذه الشّخصيفالمكان مهما بدت درجات التّغيّر فيه فإنّه يبقى ثابتا نسبيّا يحافظ على طابعه الذي يؤثّر على نفسيّة

الشّخصيّة وطبعها مهما بلغت درجة التّغيّر فيه فإنّ الشّخصيّة الرّوائيّة تبقى في حالة اقتران معه لا تستطيع الانفلات منه، فهي دائما تسعى إلى التّعرّف على ذاتها من خلاله. فإدراك الإنسان للمكان مباشر و حسّي و صراعه معه ما هو إلاّ تأكيد لذاته و تأصيل لهويّته فبقدر إحساس الإنسان بالمكان تكمن أهميّة وجوده(الذّوات لا تكسب أهمّيّتها إلاّ من خلال تفاعلها مع المكان الموجودة فيه و قد أخذت هذه القضيّة حيزا كبيرا في حديث المفكرين و الفلاسفة من أمثال "برجسون، نيوتن ، اينشتاين، باشلار" وغيرهم.قد تعاظمت أهميّة المكان في الأدب الرّوائي، و رأى أغلب الرّوائيّين أنّ الأماكن البسيطةو القرويّة تثير السّعادةوالمرح و أنّ المساكن الفخمة بالمدينة تثير الشّعور بالملل غير أنّ هذه النّظريّة تقليديّة بحتة، فإحساس الإنسان بالأمان و الاطمئنان في المكان المتواجد فيه، هو الذي يحدّد شعوره بالسّلب أوالإيجاب).[4]

ويرى "رولان بورنوف" أنّ المكان الخانق هو الذي يسيطر على الرّواية المعاصرة، ممّا ينمّي الحقدوالكراهية أحيانا، أو التّمرد و الثّورة أحيانا أخرى،و في أكثر الأحيان يتّخذ الكاتب من هذا المكان أبعادا فلسفيّة فكريّة تتجاوز تفكير الأبطال و التّأثير النّفسّي لديهم، و خير دليل على ذلك موضوع **التّيه**"الذي يُعبّر عن قلق الإنسان و غربته, فالصّحراء و الغابة و السّفر إلى مكان آخر بوهم جلب المال و السّعادة ارتبط ارتباطاوثيقا بمفهوم الغربة،و هو عنصر أساسّي في الرّواية بصورة عامّة.)[5] في حين يرى **غالب هلسا** أنّ المكان الأمومّي هو الذي يسيطر على الأدب العربّي و هو معيار للأصالة و قد حدّد **غالب هلسا** مستويات المكان في الرّوايةالعربيّةو لابدّ لأيّ رواية من أن تحمل أحدها. و ما نودّ الكشف عنه في هذه الدّراسة هو أهّم مستويات المكان في أعمال غسّان كنفاني الرّوائيّة، و مدى انعكاسها على نفسيّة الشّخصيّات.

طبيعة المكان و وظيفته عند كنفانّي: احتّل المكان مساحة واسعة من ذاكرة أبطال غسّان كنفاني حتّى بدا لنا أنّ تأثيره عليهم كان أقوى من تأثير الزّمان. ولعّل هذا يرجع إلى الهاجس الكبير الذي يلاحقه منذ اللّحظات الأولى لسقوط جّل مدنه وقُراه في أيدي اليهود و خروجه إلى المنفى،حيث يقول في إحدى قصصه: "عندما كنت أبتعد عن الدّار، كنت أبتعد عن طفولتي، في الوقت ذاته، كنت أشعر أن حياتنا لم تعد شيئا سهلا علينا أن نعيشه بهدوء..)[6]

هذا الهاجس ظّل يلاحقه في معظم رواياته و قصصه.. ومعلوم لدينا أنّ مكان فلسطيّني يندرج تحت نوعين من الأمكنة. إمّا منفى خارج الوطن أو معتقل تحت سيطرة الاحتلال، ممّا جعل أغلب الأمكنة تتّسم بالمكان الضّيق تارة أو المكان المعادّي المنغلق تارة أخرى. فكان الإحساس الطّاغّي على شخوص العمل الرّوائّي الشّعور بالإحباط والاختناق، لذلك(فإنّ رحلة غسّان كنفاني المكانيّة تتوازى مع رحلة الإنسان الفلسطيّني من الأرض إلى المنفى، الذي ظلّت فيه الأرض محمولة في الذّاكرة ينأى عنها فيقترب منها.. هذا الاقتراب من الأرض المفقودة يتسامى بها عن المسافات ليحرقها بالذّاكرة و الحلم، فنسيج رحلة الفلسطيّني يبقى متمحورا حول الأرضكّل الأفعال، الأحلام والهواجس والطّموحات، يظّل محورها الأرض...من هذا النّسيج الواقعّي يستمدّ غسّان كنفاني خيوطه لينسج كلماته في تمحورها حول الأرض).[7]

لقد بدأ صراع غسّان كنفاني من الأرض وانتهى إليها، آملا في ذلك تأكيد ذاته و هويّته المفقودة. أمّا عن طبيعة المكان في رواياته، فهي تتّنوع و تختلف من عمل إلى آخرو من ثمّ اختلفت وظيفة المكان عنده من رواية إلى أخرى، فقد يكون المكان في طبيعته مكانادّيمّا للشّخصيّة في روايةو أليفا لها في رواية أخرى بالرّغم من أنّ المكان هو نفسه كما جاء في روايات كنفاني "رجال في الشّمس"و"ما تبقّى لكم" فالمكان الذي دارت فيه الأحداث هو الصّحراء التي اختلفت وظيفتهافتارة كانت معاديّة

لشخوص كنفاني ّ ، وتارة كانت تبدو أليفة بالنّسبة لهمقبل أن نتعّرض للفضاء الصّحراويّ وتجلي ّاته في روايات كنفاني ّ حريّ بنا أن نبيّن أثرهذا المكان في الخطاب الشّعريّ و الرّوائي عامّة و في روايات غسّان كنفاني خاصّة.

الصّحراء في الرّوايةالكنفاني ّة: كانت الصّحراء في روايتي كنفاني ّ "رجال في الشّمس" و "ما تبقّى لكم" مسرحا للأحداث، فكانت لهم الفلسطيني ّة المقتلعة من وطنها تفتقر إلى مواصفات الحياة الإنساني ّة، حيث الفقر و أهوال البحث عن رغيف و بيت و مدرسة. وحياة كهذه من الطّبيعّي أن تفرض على الإنسان الفلسطيّني أن يكون تّحركه مقيدا و تابعا لنظام البلد المحتضن، هذه التّجربة المريرة أفضت بالإنسان الفلسطيّني أن يشقّ طريقه، و أن يكسر القيود التي تكبّله للبحث عن حياة أفضل، و لن يجدهذه الحياة إلاّ إذا ابتعد عن ذلك المكان، إلى مكان آخر يجد فيه الأمن و الاستقرار، و كي يتحقّق مراده لابُدّ أن يقطع الصّحراء فهي الحد الوحيدة التي لا تكتسي قوانين البشر فيها أيّه أهميّة)[8] لكنّها في الوقت نفسه محفوفة بالمخاطر. فكيف تبدت هذه الصّحراء بالنّسبة لأبطال غسّان كنفاني ّ في روايتيه "رجال في الشّمس" و "ما تبقّى لكم"؟

الصّحراء المكان المعادي: يحدّد المكان في رواية "رجال في الشّمس" في الصّحراء، حيث مكاتب المهّربين و الجوازات و في الخّزان وهما مكانان رئيسيّان في الرّواية، دارت فيهما معظم الأحداث، فالصّحراء من أكثر الأدوات الفنيّة التي اعتمدتها روايات كنفاني ّ ، لأنّها تمثّل عنده الشّموخ و الكبريّاء.

(لأخذ من صحرائنا ليس فقط نفطها بل كرامتهاوهويّتها).[9] و رغم أنّ الصّحراء مكان شاسع لا حدود له أينما وجد، فإنّه يتّسم بالرّهبة والوحشة، و يتراءى في جوفه بركان كامن، يتفجّر في أيّ لحظة غضب. كانت الصّحراء الواقعة بين الأردن و البصرة. هي بداية الرّحلة التي قطعها "أسعد"تميّز هذا المكان بكثرة الجرذان الضّخمة التي تبدو في حجم الثّعلب ويتّضح ذلك من خلال حوار السّائح الإنجليزّي الذي كان يقود سيّارته برفقة زوجته(**أنظر... أنظر إنه ثعلب... ألم تر إلى عينيه كيف تتقدان؟**

إنه جرذ... جرذ... لماذا تصرين على أنه ثعلب؟

إن هذه الصحراء مليئة بالجرذان، تراها ماذا تقتات؟... جرذان أصغر منها؟)[10]

إذافطبيعة هذا المكان استغلاّلي و معادّي يملأه عالم مفترس، الكبير يأكل الصّغير، و يحكمه قانون الغاب، وما الرّجال الثّلاثة إلا جرذان لأصحاب مكاتب التّهريب الثّعالب"ثم تمتّد الرحلة أمام الأبطال الثّلاثة لاجتياز هذه الصّحراء. وأفضل وصف لها حين قال الرّجل السّمين الذييحدّق بعينين واسعتين لأبي قيس:(... **الصّحراء مكان بلا ظّل...و لكنّك ستصل.)**[11]

معلوم لدينا أنّ الشّجرة هي عطاءة الظّل و الخضرة، و منها تبلّمحبّة و العلاقات الإنسانيّةو هذه الصّحراء افتقدت المعالم الإنسانيّة فشبّهها "أبو الخيزران" الذي لم تشكّل لديه أيّ إحساس بالقلق، بأنّها مكان للهياكل العظيمة التي تضّل طريقها، الذين يغدر بهم المهّربون فيموتون عطشا.(**سيتركونكم في منتصف الطّريق وأنتم بدوركم ستذوبون في قيظ آبودون أن يشعر بكم أحد).**[12]

وهنا إشارة للموت منذ أوّل خطوة للأبطال في الصّحراء، تتمثّل في خطر البعد المكاني ّ عن المكان الأّم"فلسطين"، كانت هذه الصّحراء من وجهة نظر "أبي الخيزران"امتحانا قاسيّا للأبطال فمن اجتازه دخل بسلام و من تخلّف دخل النار. و تشير كّل الدّلائلحول هذا المكان إلى الموت و الذي يزيده قسوة وجود الأبطال الثّلاثة في مكان ضيّق مختنق عبارة عن خّزان للماء و

على رأسهم حرارة الشّمس الحارقة التي تكاد تكون شبيهة بنار جهنّم، و هنا يتحوّل المكان الذي قد تتباين صورته إلى قبر، و نعني به السّجن الإنسانيّة، وسجن إرادتها، و قتل كلّ ما هو جميل في الإنسان ليتحوّل إلى دميّة، و من ثمّ يكون موته موتا مجانيّا.

الخزان/ الخزان: مكان معادي بالنّسبة للشّخصيّات وردت صورته في الرّواية كالتّالي:

- (سيكون الطّقس كالآخرة هناك في الدّاخل".

- "الحر خانق و مخيف هنا و سوف تعرفون كأنّكم في المقلاة".

-سيصبح الخزّان من الدّاخل فرنا حقيقيّا...)[13]

-هذه هي جهنّم إنّها تتّقد"... "إنّه بئر ملعون.)[14]

إنّ الصّورة التي قدّم بها غسّان كنفاني الخزّان توحي بالموت من أوّل وهلة، فهل يمكن للإنسان أن يعيش إذا ألقي في جهنّم؟ أو في بئر لا قرار له؟ أو في فرن درجة حرارته مرتفعة؟ إذا فالموت المجاني كان مصير كلّ من يختار الهرب عن وطنه، و يستسلم لـ لمعجز، أو يبحث عن الخلاص الوهمي، فالموت على أرض الوطن أرحم مئات المّرات من الموت على أرض غريبة، و أيّ موت تعرض له الرّجال الثّلاث، موت داخل خزّان وفي صحراء قاحلة و متوحّشة لا ترحم من يعبرها حتّى و لو كان مسافرا بمحض إرادته، فما بالك بمن يسافر هربا عبر الحدودفمصيره محتوم لا محالة، فهذه الصّحراء نراها قاتلة لكلّ من يحتمي بها، و هي رؤية مستقبليّة بوقف التّوجّه إليها و اللّجوء إلى المقاومة بدلا منها.

الصّحراء / المكان الأليف: إذا كانت الصّحراء في رواية "رجال في الشّمس" اتّسمت بالوحشيّة و كانت معاديّة للرّجال الثّلاث.فكيف كانت بالنّسبة لحامد بطل رواية "ما تبقّى لكم". إنّ الصّحراء التي وقعت عليها أحداث الرّواية واقعة بين غزّة و الأردن وؤدليّة إلى فلسطين، هته الصّحراء، رغم ما قيل عنها على لسان زكريّا "النّتن" إلاّ أنّها كانت بمثابة المكان الأمومّي كانت مغايرة تماما للصّحراء المعاديّة في الرّوايةالأولى.و هنا نتساءل:كيف كان شعور "حامد" تّجاه هذا المكان؟ و هذه صورة الصّحراء كما جاء في الرّواية.**(رآها لأوّل مرّة مخلوقا يتنفّس على امتداد البصر، غامضا و مريّعا و أليفافي وقت واحد... لقد أحسّ بها جسرا هائلا يتنفّس بصوت مسموع)[15]**

ثمّ يصف حامد شعوره بصورة أدقّ**(فأحسّ بدنه يعلو و يهبط فوق صدرها.)[16]** إنّ علاقة (حامد) بالصّحراء كعلاقة الرّجل بالمرأة. فهذ االوصف بعيد جدّا عن لغة الصّحراء الأولى في رواية "رجال في الشّمس" خاصّة و أنّه سلخ الزّمان و تركه وراءه، ليرصد تغيّرات المكان ومقاومتهلقله.استطاع أن ينفلت من البيت الضيّق في غزّة متحدّيا القوانين الطّبيعيّة التي تتّسم بها الصّحراء و المتمثّلة في خلائهلمخيف؛ لأنّه وجده المكان الذي يستطيع أن يغرز فيه بذور هويّته، كان مكانا مألوفا. **(و دون أ ن ينتابه خوف، أو تردّد استلقى على الأرض، وأحسّ بها تحته ترتعش كعذراء، فغرس أصابعه في لحم الأرض، و ذاق حرارته تسيل إلى جسده و بدا له أنّها تنفّست في وجهه،فلفح لهاثها المستثار وجنته و شدّ إليها فمه و أنفه.. أراح وجنته فوق صدرها الدّافئ... فيما أخذت نسمات باردة تغسله)[17]** ترّد عليه الصّحراء مبرزة شعورها قائلة: **"كنتمبسوطة أمامه مستسلمة لشبابه بلا تردّدو لخطواته و هي تدقّ في لحمي.)[18]**تقول صبحيّة زعرب:"من الواضح أنّ صحّة اختيار

المكانالذي حدّد شعور البطل نحوه، فضلا عن أنّ هذا مرتبط ببنيّة غسّان كنفاني ّ النّفسيّة من حيث علاقته بالأرض المفقودة، لأنّه أوّل من عانى مأساة التّجربة المكانيّة، حيث كان يعمل في الكويت، فأرّقه المكان حتّى استشهاده.)[19].

هكذا بدا "حامد"بطل الرّوايّة في الصّحراء التي اختارها بمحض إرادته لتكون له المكان الحقيقّي الذي يبني فيه ذاته، عكس البيت الذي نفر منه، فهرب متوّجها نحو الصّحراء، فهل كان البيت مكانا أليفا أم معاديّا بالنّسبة لأبطال الرّواية؟

البيت المكان: يُعدّ البيت من أهّم الأمكنة الأليفة في حياة الإنسان، إن لم يكن أهمّها و في حياة الإنسان الشّاعر والرّوائّي على وجه الخصوص، فالبيت هو أوّل نقطة انطلاق في رحلة التّواصل بين الأنا و الآخر فيه ذكريات ماضيه و على جدرانه تّوهات طفولته، و أهازيج صباه، فيه حاضرة المعيش، و حلمه المتخيّل و مستقبله المأمول.البيت هو المأوى و أول عتبات الاستقرار، و أهّم محطّة لتلاقي الذّكريات والأحلامو الأفكار

و دون البيت (يصبح الإنسان كائنا مفتّتا)[20].للبيت حضوره في الأدب بأشكال و صّور مختلفة، وله دلالات تتّسع و تضيق بحسب الأثرو التّواجدو التّفاعل بينهو بين ساكنيه. كما يرتبطالبيت (المكان)بالحّب

و المرأة و الأسرة، فهو أيضا بيت الغربةو الفراق. و البيت هو الذّكرى كذلك، هذا ما نلحظه في روايات كنفاني. يظهر البيت بالنّسبة للأبطا تارة أليفا رغم اغتراب ساكنيه عنه، يبقى في ذاكرتهم يأملون العودة إليه يوما ما، وقد يبدو عدائيّا رغم ألفته، و يرجعذلك إلى ما يحدث للشّخصيّة في هذا البيت من ذلّو مهانةفيصبح ساكنه غريبا عنه، لا يطيق البقاء فيه و لو للحظة.

البيت / المكان المعاديّ:إنّ البيت الذي ألفه "حامد" لم يعد يعني له شيئا، خاصة عندما وُسم بالعار و الخزي من قبل مريم أخت حامد التي خدعته معزكريّا"بزواجهاغير الشّرعّي، لقد أصبح البيت عدائيّا بالنّسبة لحامد، حيث نفر منه مهاجرا إلى الصّحراء بدلا منه، علما منه أنهّا ستؤّي به إلى الهلاك، ومع ذلك أحبّها عوض بيته في غّزة الذي كان يجلب له العار، و انتفت عنه الطمأنينة و الرّاحة و السّكونلما تدورفيه من أحداث متفجّرة و رهيبة لا يتقبّلها العقل.إنّ البيت كما هو معلومدلينا حتى لو كان ضيقا، يكون محبوبا و عزيزا لدى صاحبه إذا كانت له فيه ذكريات سعيدة، لكنّه بالنّسبة لحامد في رواية "ما تبّقى لكم"كان منفّرا له و غير مألوف، بينما أصبح محبّ بالزّكريّا"**(و خلع نعليه و جلس كأنّ البيت بيته)**[21].أّما مريم أخت حامد فكان البيت لها سجنا أبديّا يملأها بالغضب و القلق و التوتر إذ يبدو ذلك في الحوار التّالي: **(ماذا حصل لك؟ أنت لمتنامي للحظة واحدة... ماذا حصل؟)**[22]إنّ هذا البيت الذي شهد الحّب المزيّف بين مريم وزكريّا" شهد أيضا العنف و الصّخب حين قتلزكريّا" على يد مريم، فكأنه بهذا مثل السكون والعنف في آن واحد لذلك كان البطل في إطاره المكاني محبطا أحيانا، ثم ثائرا ، صاخبا أحيانا أخرى.

البيت / المكان الأليف:المكان الأليف هو كل مكان عاش فيه الإنسان و شعر فيه بالحماية و الدفء و أحس تجاهه بالألفة وشدة الشوق إليه كلما بعد عنه و من تم يشكل هذا المكان مادة للذكريات، غير أن ألفة المكانو عدائيته إنما تحكمه الحالات النفسية الخاصة التي يمر بها الإنسان بصفة عامة.و قد (كثرت أماكن الألفة بحيث لم تغب عن مخيلة الأدباء في النتاج الأدبي، فجاءت صدى لنفسيتهم التي فتحت مجال الشعور للمعيش و منحت الأديب فسحة للتذكر و الحلم و جاءت أماكن العطاء منطلقة من زاوية العطاء الطبيعي إلى البحث عن مناحي العطاء النفسي و الوجداني التي كشفت عن الأثر الفاعل للإنسان في اكتساب المكان سمات الخصب و العطاء.)[23]

و من هته الأمكنة، "البيت" الذي برز بشكل واضح في أعمال كنفاني الروائية ففي "رجال في الشمس" يحلم "أبو قيس" ببيت يلويه هو و زوجته و ابنه، فهو مضطر للسفر إلى الكويت من أجل جلب المال فقط و العودة، فالبيت دائما يشده للعودة إليه بالرغم من أنه لا يكسب بيتا من الملكية الخاصة و إنما كان يقطن بيتا كان قد استأجره و يظهر ذلك في الحوار الذي دار بينه و بين صديقه سعد الذي سبق له أن هاجر إلى الكويت و جلب أكياسا من النقود، فهو يحرضه على الذهاب إلى الكويت كي يجلب المال.**(في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئا سوى أن تنتظر... لقد احتجت إلى عشر سنوات كثيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجراتك و بيتك و شبابك وقريتك كلها... ماذا تراك تنتظر؟ أن تثقب الثورة سقف بيتك... بيتك؟ إنه ليس بيتك... رجل كريم قال لك اسكن هنا!هذا كل شيء و بعد عام قال لك أعطني نصف الغرفة فرفعت أكياسا مرقعة من الحنش بينك و بين الجيران الجدد.)**[24] أبو قيس ظل يحلم ببيت يملكهيستقر فيه و يحس فيه بالأمان و الألفة مع أسرته، لكن الموت حال بينه و بين ذلك الحلم. **(سيكون بوسعنا أن نعلم قيس..."و قد نشتري عرق زيتون أوأثنين...وربما نبنى غرفة في مكان ما...)**[25]

أما في "رواية عائد إلى حيفا" يشكل البيت مادة للذكريات فبطل الرواية سعيد. س و زوجته صفية نزحا عن بيتهما الأليف إثر النكبة لمدة عشرين سنة، لكن لا زالت صورته محفورة في ذاكرته، لم يتمكن من نسيانه فكيف ينسياه و قد تركا فيه فلذة كبدهماو هما لا يعرفان المصير الذي آل إليه البيت والابن ،فعند عودتهما إلى حيفا و إلى البيت و الابن يصدمون بالمفاجأة، البيت لم يتغير فيه شيء لكن الابن هو الذي تغير فأصبح صهيونيا بالتبني فالبيت الذي رسمه سعيد في مخيلته لم يعد بيته، قد أصبح ملكا لليهودية التي تبنت ابن سعيد.هناك وصف لحركية المكان قبل عشرين عاما و يقارنها مع نفس آلية الحركة بعد عشرين عاماو هناك كناية عن أن العائد "سعيد" لا يقبل التخلي عن تفاصيل الحركة في مكانه كدلالة على وجوده الحي فيه و إن غادره. **(و مثلما كان يفعل قبل عشرين سنة تماما خفف سرعة سيارته إلى الحد الأدنى قبل أن يصل إلى ذلك المنعطف الذي يعرف تماما أن سفحا صعبا يكمن وراءه... و انعطف بسيارته كما كان يفعل دائما و تسلق السفح محتفظا بالموقع الصحيح في الطريق الذي أخذ يضيقو كانت أشجار السرو الثلاث التي تنحني قليلا فوق الشارع قد مدت أغصانا جديدة و رغب أن يتوقف لحظة كي يقرأ على جذوعها أسماء محفورة منذ زمن، و يكاد يتذكرها واحدا واحدا)**[26] إذا العودة تعني عودة المكان بنفس آلية الحركة المعبرة عن وجوده كإنسان في مكان مرتبط فيه نفسيا وعاطفيا و جسديا. و هناك الصورة الحية لذاكرة المكان بساكنيه كما كان، فهو يطل عليه بعد زمن ويجده كما هو.**(و فجأة أطل المنزل، المنزل ذاته ذلك الذي عاش فيه، ثم عيشه في ذاكرته طويلاوها هو الآن يطل بمقدمة شرفاته المطلية باللون الأصفر، و لوهلة خيل إليه أن صفية، شابة و ذات شعر مجدل طويل، ستطل عليه من هناك، كان حبلا جديدا للغسيل قد دق على وتدين خارج الشرفةوتدلت منه قطع بيضاء لغسيل جديد و فجأة أخذت صفية تبكي بصوت مسموع، أما هو فقد انحرف إلى اليمين و ترك عجلات سيارته تصعد الرصيف الوطيء ثم أوقف السيارة في المكان الذي لها كما كان يفعل تماما منذ عشرين عاما.)**[27] إن الأمكنة التي لا يعرفها الإنسان، يضيع فيها أما مكانه الذي يعرفه فهو يدركه و يحفظ تفاصيله الصغيرة، و بذلك هو يعرف اتجاه الباب و مكان الجرس، و عدد الدرجات و إن فقد أحدها اختل

توازنه. و هذا ما يحاول غسان كنفاني الإشارة إليه هنا بأن الأشياء الصغيرة في المكان بقدر ما نعرفها تعرفنا هي و لا تنكرنا إذا تخلينا عنها و أنكرناها و هو يؤكد على خصوصية هذا البيت في ذاكرة سعيد وصفية **(أمسك بذراعها و إذا يقطع بها الشارع، الرصيف، البوابة الحديدية الخضراءالدرج و بدآ يصعدان، دون أن يترك لنفسه و لها فرصة النظر إلى الأشياء الصغيرة التي كان يعرف أنها ستضعه تفقده اتزانه، الجرسو لاقطة الباب النحاسية و خربشات أقلام الرصاص على الحائطو صندوق الكهرباء و الدرجة الرابعة المكسورة من وسطها، و حاجز السلم المقوس الناعم الذي تنزلق عليه الكفو شبابيك المصاطل ذات الحديد المتصالب و الطابق الأول حيث كان محجوب السعدي يعيشو حيث كان الباب يظل مواربا دائما والأطفال يلعبون أمام الدار دائماويملأون الدرج صراخا إلى الباب الخشبي المغلق، المدهون حديثا و المغلقبإحكام.)**[28]

يطرح غسان كنفاني مسألة في غاية الأهمية و هي علاقة الإنسان بالمكان فهي ليست مجرد ملكية للأشياء التي يحتويها المكان بل تتعدى ذلك إلى قضايا أكثر جوهرية، إذ إن المكان مرتبط بجماليته الخاصة لدى كل فرد. فالرؤية هي داخل وجدان الفرد..**(و استطاع أن يرى أشياء كثيرة اعتبرها ذات يوم و ما يزال أشياءه الحميمة الخاصة التي تصورها دائما ملكية غامضة مقدسة لم يستطع أي كان أن يتعرف عليها أو أن يلمسها أو أن يراها حقا، ثمة صورة للقدس يتذكرها جيدا ما تزال معلقة حيث كانت حين كان يعيش هنا و على الجدار المقابل سجادة شامية صغيرة كانت دائما هناك أيضا و أخذ يخطو ناظرا حوالية، مكتشفا الأمور شيئا فشيئا و دفعة واحدة، كمن يصحو من إغماء طويلو حين صارا في غرفة الجلوس استطاع أن يرى أن مقعدين من أصل خمسة مقاعد هما من الطقم الذي كان له. أما المقاعد الثلاثة الجديدة فقد كانت جديدة و بدت هناك فظة غير متسقة مع الأثاثو في الوسط كانت الطاولة المرصعة بالصدف هي نفسها و إن كان لونها قد صار باهتاو فوقها استبدلت المزهرية الزجاجية بأخرى مصنوعة من الخشبو فيها تكومت أعواد من ريش الطاووس كان يعرف أنها سبعة أعواد و حاول أن يعدها و هو جالس مكانه إلا أنه لم يستطع، فقام و اقترب من المزهرية و أخذ يعدها واحدة واحدة، كانت خمسة فقط.)**[29]

ينقلنا غسان كنفاني من قصة سعيد و زوجته إلى قضية أخرى هي قصة فارس اللبدة التي جاءت على لسان سعيد لزوجته. أما فارس فإن علاقته بالمكان قد تجاوزت المادي و الاجتماعي و الجمالي إلى ما هو أعمق دلالة و أكثر نفاذا في النفس البشرية. فالحكاية تقول: أن فارس اللبدة عاد إلى بيته الذي بقي في ذاكرته، يحن للعودة إليه، و عند رجوعه إليه يفاجأ بأن بيته قد سكنه عربي مثلهو ليس يهوديا كما كان يظن و ذلك العربي وجد نفسه محاطا بالمكان الخالي من البشر، الذين رحلوا و لكن صورة بدر الشهيد و هو شقيق فارس اللبدة أجبرته على الوفاء للبيت وعدم التخلي عنه دون سواه بعد أن دمر بيته و يأتي على لسان هذا العربي الوفي للبيت و لأبناء وطنه الشهداء**(يبدو لي أن يكون الإنسان مع رفيق له حمل السلاح و مات في سبيل الوطن شيئا ثمينا لا يمكن الاستغناء عنه ربما كان نوعا من الوفاء لأولئك الذين قاتلوا كنت أشعر أنني لو تركته لكنت ارتكبت خيانة لا أغتفرها لنفسي. لقد ساعدني ذلك ليس على الرفض فقط، و لكن البقاء... هكذا ظلت الصورة هنا. ظلت جزءا من حياتنا أنا و زوجتي لمياءو ابني بدر و ابني سعد و هو أخوك بدر، عائلة واحدة عشنا**

عشرين سنة معا، كان ذلك شيئا مهما بالنسبة لنا...)[30] أراد فارس اللبدة أن يستعيد البيت فوجده بيد من هو أحق منه به، بيد عربي رفض الرحيل، فحياء من الرجل قرر استعادة صورة أخيه المعلقة على الجدار من باب الوفاء له و مع ذلك وجد أنه لا يحق له الاحتفاظ بتلك الصورة لأن مكانها الحقيقي حيث يرقد صاحبها **(و صار على الطريق المتجه نحو رام الله و عندها فقط انتابه شعور مفاجئ بأنه لا يملك الحق بتلك الصورة .)**[31] أما الرجل الذي كان قد احتفظ بالصورة و البيت طوال تلك الفترة فقد أصابه الندم لأنه تخلى عنهافقال له حين أعادها له **(شعرت بفراغ مروع حيث نظرت إلى ذلك المستطيل الذي خلفته على الحائط، و قد بكت زوجتي و أصيب طفلاي بذهول أدهشني، لقد ندمت لأنني سمحت لك باسترداد الصورة، ففينهايةالمطاف هذا الرجل لنا نحن، عشنا معه و عاش معناوصار جزءا مناو في الليلقلت لزوجتي أنه كان يتعين عليكم إن أردتم استرداده،أن تستردوا البيت ويافا و نحن...الصورة لا تحل مشكلتكمو لكنها بالنسبة لنا جسركم إلينا وجسرنا إليكم).**[32] إن تقاطع حكاية "فارس اللبدة" مع حكاية سعيد فيها الكثير من الدلالات التي تؤكد على أن:

* المكان لا يكون بأشيائه في الذاكرة و ليس بقدسية الذكريات فيه بل بناسه المصلوبين أحياء و أمواتا في انتظار أحبتهم.

* المكان لمن يدافع عنه ويبقى فيه و إن اضطر لأن يبقى فيه حيا كالرجل الذي بقي في بيت فارس اللبدة أو ميتا كبدر المصلوب على الجدار.

* المكان ضرورة الوجود الإنساني و شرعية هذا الوجود و هذا حق يدافع عنه بقوة السلاح.

الشجرة في الرواية الكنفانية: لم تغفل روايات كنفاني عن توظيف شجرة الزيتون كرمز للأرض المغتصبة والأصالة و اخضرارها الدائم رمز للحياة و المقاومة المستمرة في الأرض المغتصبة، و بما أن غسان كنفاني كأي فلسطيني فتح عينيه على شجرة الزيتون، فهي دائما معه في ذاكرته لذلك لا تخلو رواياته من ذكرها. ففي "رجال في الشمس" أول الشخصيات التي تعرضها الرواية شخصية أبو قيس العجوز الذي حرم من بيته و شجراته في قريته فهو يحلم باسترجاعها و السبيل إلى ذلك، هو سفره إلى الكويت. **(وراء هذا الشط فقط توجد كل الأشياء التي حرمها، هناك توجد الكويت، الشيء الوحيد الذي لم يعش في ذهنه إلا مثل الحلم و التصوير يوجد هناك)**[33].

نلاحظ مقارنة هذا المكان (الكويت) مع المكان في ذهنه "القرية"،**(لابد أنها شيء موجود من حجر وتراب و ماء و سماء، وليست مثلما تهوم في رأسه المكدود، لابد أن ثمة أزقة و شوارع رجال ونساء و صغارا يركضون بين الأشجار... لا ... لا توجد أشجار هناك (...) لا توجد هناك أية شجرة... الأشجار موجودة في رأسك يا أبا قيس... في رأسك العجوز التعب يا أبا قيس... عشر أشجار ذات جذوع معقدة كانت تساقط زيتونا و خيرا كل ربيع... ليس ثمة أشجار في الكويت هكذا قال سعد)**[34].

هنا يعطي تفاصيل للأشجار... ليست كأي أشجار هي فقط خاصة بقريته بل أشجاره هو أشجار من الجنة تساقط زيتونا و خيرا. و الكويت قفر و عطش و صحراء قاحلة، الكويت فقط أرض سوداء للنفط و لا تزرع شجرا و لا تنبت خيرا، فالمكان عند الرجل العجوز مكان يتمثل بدلالة أشجار الزيتون، فالعجوز المسكين مازال في حالة البحث عن مكان مستقبلي يشبه تماما مكان الماضي الذي لا زال حيا فيه.

(ماذا تريدين يا أم قيس؟

حدقت إليه و همست كما ترى أنت

سيكون بوسعنا أن نعلم قيس نعم و قد نشتري عرق زيتون)[35]

أبو قيس ككل فلسطيني يمثل كل الفلسطينيين الذين زحزحوا من أماكنهم و فقدوا أشجارهم التي ألفوها و أصبحت جزءا لا يتجزأ منهم، فإذ اقتلعتها أو اقتلعتهم عنها كأنك اقتلعت جزءا من كيانهم إن "شجرة الزيتون" شكلت المكان الأليف لكل فلسطيني يأخذها معه أينما ارتحل يأخذها في ذاكرته و لا يمكن لأي قوة من القوى أن تنتزعها من الذاكرة حتى لو انتزعت من مكانها الأرضي فهي باقية معه في وجدانه تذكره بالانتماء للوطن المسلوب.

الحدود / المكان المعادي:

لقد لعبت الحدود و الحواجز بين بلد عربي و آخر عائقا هاما في تحرك المواطنين سواء كانوا فلسطينيين أو غير فلسطينيين، فكل الحواجز مراقبة من طرف رجال الحدود، لذلك كان لزاما على أبطال رواية "رجال في الشمس" أن يعبروها داخل خزان صهريج مقفل مما أدى إلى موتهم، فعبور أسعد من الأردن إلى العراق كان مشكلة كانت قد تؤدي إلى موته و هناك عدة مواطن ذكر فيها اسم الحدود و قد رمز الكاتب لهذه الحدود الاستعمارية التي يضطر الإنسان العربي الالتفاف حولها للدخول إلى قطر عربي آخر (بالأتشفور) نذكر منها ما يلي.[36]

("ما عليك إلا أن تدور حول الأتشفور... و ستجدني بانتظارك في الطريق."

"قال له أن عليه أن يدور حول الأتشفور كي يتلافى الوقوع في أيدي رجال الحدود، ثم يلتقيه على الطريق."

"إن اسمك مسجل في كل نقاط الحدود."

"اقسم لك بشرفي أنني سألتقيك وراء الاتشفور."

"لقد دار دورة كبيرة حول الاتشفور.")

بعدما يلتف أسعد حول الاتشفور يصل إلى العراق حينها يلتقي بأبي قيس و مروان صديقاه أثناء الرحلة المشؤومة و يجري الاتفاق مع أبي الخيزران الذي سينقلهم على متن سيارة مرخصة لاجتياز الحدود. **(لدى سيارة مرخصة لاجتياز الحدود... صاحب هذه السيارة رجل ثري معروف و لذلك فإنها لا تقف كثيرا على الحدود و لا تتعرض للتفتيش)**[37]. هذا الأمر شجع الرجال الثلاثة على المجازفة و الهرب داخل خزان السيارة لأن هذه الأخيرة ليست معرضة للتفتيش. فالحدود إذن شكلت مكانا معاديا يسلب الإنسان الفلسطيني حريته و تحول دون تحقيق مبتغاه في التطلع إلى عالم أفضل، و ها هي نفس الحدود تمنع سعيد. س و زوجته صفية في رواية "عائد إلى حيفا"، من العودة إلى حيفا إلا بعد عشرين عاما عندما فتحت الحدود و سمح للنازحين بالدخول إلى بلدهم، تلك الحدود كانت سببا في تغيير هوية الإنسان العربي إلى الهوية اليهودية، ترى هل كان الأمر مختلفا لو لم تغلق الحدود و تمكن سعيد. س و صفية من العودة إلى بيتهما في نفس اليوم الذي حدث فيه ما حدث؟ إذا الحدود كانت سببا في معاناة عائلة بسبب تركها لابنها في المنزل طفلا وحيدا و سببا في ضياع هذا الابن و سببا في ضياع الكثير من العائلات الفلسطينية. فالحواجز كانت (إشارة فصل بين زمنين و هويتين و لونين من البشر إن لم تكن إعلانا عن خلق و مخلوق جديدين الحاكم الوحيد بينهما هو القوة التي تنشئ الطرق الالتفافية، حينما تشاء و تغدق عليها ما تشاء من السماء و

لهذا يبدو الحاجز هو الموقع الشاهد على ثنائية الخالق و المخلوق التي تضع الأخلاق و الحس السليم جانبا مسترشدة بالقوة و بتفاوت جواهر البشر**)**.[38]

هناك حاجز من نوع آخر ورد في رواية "ما تبقى لكم" و هو الجدار الذي استخدمه غسان كنفاني كرمز فماذا كان يعني الجدار في الرواية؟ **(** إن رمز الجدار يشير إلى المانع الذي يقف في وجه الشخصيات لتنفيذ الرغبات والطموحات و إخراجها إلى حيز الوجود**)**[39].و يمكن حصر هذه الشخصيات في رواية "ما تبقى لكم" في **"**مريم الأم، الزمن**"(** إن وجود الجدار في هذه الرواية كان أمرا أساسيا أوجبته تقنية فنية لضرورة هدمه**.)**[40] وتجليات هذه الدلالات تنعكس في النصوص التالية:

(حين اقتادوه إلى ما وراء الجدار، رأيته بعيني يشيع زكريا باحتقار جارح)[41]

(تريد أن تضع أمك بينك و بين مريم؟ تريد أن تجعلها جدارا من النسيان؟ ارتدادا إلى كارثة أخرى)[42]

(و جاءت طلقة واحدة من وراء أنقاض الجدار فانحنى زكريا أمامنا..)[43]

(إنهدم الجدار فجأة، و أصبحنا ندين في مواجهة مباشرة لعراك حقيقي متكافئ و مشرف)[44]

يتبين من هذه النصوص أن الجدار كان قويا و صلبا في البداية، لكنه إنهدم حين استعاد (حامد) ثقته بنفسه و عزم على التحدي و المواجهة و هكذا يمكننا القول إن الحواجز تكون منيعة و صلبة عندما تغيب الإرادة و يغيب الوعي و الثقة بالنفس بينما تهدم و تصبح هشة مقابل إرادة و عزيمة قوية.

المراجع:

[1] أحمد عزي صغير،**"الفضاء و تشكلاته السردية في الرواية العربية الحديثة"**، دراسة نقدية، موقع الكتروني.

https://ar-ar.facebook.com/alamedbag/posts/425638900781445

[2]الفيومي ابراهيم،**"المكان و دلالته"**، مجلة جامعة البعث، مج19، العدد الأول 1997.

[3]شرحبيل المحاسنة، **"المكان الروائي و دلالته"**، دراسة نقدية، موقع الكتروني.

http:/www.odabasham.net/print.php ?sid=53389 8ca

[4]نفسه، ن،ص.

[5]صبحية عودة زعرب . " جماليات السرد في الخطاب الروائي ".دار مجدلاوي للنشر و التوزيع الطبعة الأولى .2006م .ص 95.

[6]السابق، ص .99

[7]نفسه ن ص

[8]عبد الودود عمراني، **"قراءة عربية في رواية الصحراء"**،لوكليزيو، صحيفة الوطن القطرية، (2008/10/13).

[9]صبحية عودة زعرب،**"جماليات السرد في الخطاب الروائي"**، مرجع سابق، ص .100

[10]غسان كنفاني،**" الروايات"**، المجلد الأول، دار الطليعة للطباعة و النشر ، ط1 ، ص 66- .67

[11]نفسه، ص .49

[12]نفسه، ص .99

[13]المصدر السابق، ص114-.115

[14]نفسه، ص116-.117

[15]نفسهص .161

[16]نفسه، ص .162

[17]نفسه ، ص 169.

[18]نفسه ، ص 173.

[19]صبحية عودة زعرب، **"جماليات السرد في الخطاب الروائي"**، مرجع سابق، ص .103

[20]غاسطونباشلار، **"جماليات المكان"**، ترجمة غالب هلسة ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط 6، 2006، ص .45

[21]غسان كنفاني، **"الروايات"**، مصدر سابق ، ص .216

[22]نفسه، ص .220

[23]ياسر فضل صالح عبد الكريم العامري،**"جماليات المكان و بناؤه في الشعر العربي الحديث في اليمن 2000"**رسالة ماجستير قسم اللغة العربية.

[24]غسان كنفاني، **"رجال في الشمس"**، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، الطبعة الثانية 1980 تصميمو إخراج و تنفيذ دار المثلث،ش. م. م، بيروت، ص.18

[25]نفسه، ص.20

[26]غسان كنفاني، **"الروايات"**، مصدر سابق ، ص.361

[27]فسه، ص .362

[28]غسان كنفاني، **"الروايات"**،مصدر سابق ،ص .363

[29]السابق، ص 364- .365

[30]نفسهص .392

[31]نفسه، ص .393

[32]لسابق، ن ص.

[33]غسان كنفاني، **"رجال في الشمس"**، مرجع سابق، ص .18

[34]السابق، ن ص.

[35]نفسه، ن ص .

[36]غسان كنفاني،**" الروايات"**، مصدر سابق ، ص (54، 57، 58، 59)

[37]نفسه، ص .94

[38]فيصل دراج، **"رواية الكابوس الفلسطيني في بلاد الحواجز"**، دراسة نقدية، خاص بالقصة السورية، الأسبوع الأدبي 2006./04/10

[39]صبحية زعرب، **"جماليات السرد في الخطاب الروائي"**، مرجع سابق، ص .194

[40]المرجع السابق، ن،ص.

[41]غسان كنفاني، **"الروايات"**، مصدر سابق ، ص .200

[42]نفسه، ص .196

[43]نسه، ص .215

[44]نفسه، ص 190.